

صورة الفرنسي في رواية المرفوضون لسعدي إبراهيم

أ. وافي حليلة

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

شكلت الثورة التحريرية منهلاً غزيراً، اغتترف الأدباء الجزائريون منه لإنتاج أعمالهم الإبداعية، التي بدورها بينت عظمة وقدسية الثورة وثوارها، الذين بذلوا النفس والنفيس من أجل نيل الحرية وتخليص الوطن من المستعمر الغاشم.

إذ أصبحت حرب التحرير الجزائرية " تشكل تراثاً يستند إليه الأدباء ويستوحون منه كتاباتهم.... إذ يستحضر الكاتب الحرب بوصفها صراعاً بين الكتلة الوطنية من الجزائريين والكتلة الإستعمارية من الفرنسيين.... فقد عدت معلماً بارزاً في تاريخ الحركة الوطنية، بل أنها تشكل أكبر منعرج في تاريخ الجزائر"¹.

ويعد الإستقلال وإستقرار الأوضاع مال الكتاب إلى الفن القصصي، فظلت صورة الحرب تلاحق الكتاب سواء من باب الإستحضار فالحنين فالوصف أو من باب الحنين فالنقمة فالنقد².

فالأديب الجزائري ناضل بقلمه من أجل نزع الحرية والإستقلال " فلم يتخلف ولم يتخل قط عن طبيعة سكان هذا الوطن المعروف بالنضال والمقاومة من أقدم العصور والأزمان.... فكيف يشذ عن

طبيعة هذا الشعب في النضال والمقاومة أبنأؤه الأدباء والمثقفون.... هم النخبة الواعية المفكرة في كل شعب هم إكسير الحياة والعامل المحرك لنهضات الشعوب"³.

ومن ضمن الأعمال الروائية التي برزت بعد الإستقلال وشكلت الشخصية الأجنبية وبخاصة الفرنسية منها جزءا من أعمالهم الروائية ومادة لها رواية" المرفوضون لسعدي إبراهيم"، فسنلقي الضوء عليها محاولين إستخراج الشخصيات الفرنسية وكيف نظر سعدي إبراهيم لهاته الشخصيات؟.

أ- رواية المرفوضون " سعدي إبراهيم":

تعد رواية المرفوضون أولى تجارب لسعدي إبراهيم في ميدان الكتابة الروائية ، ومهما كان نوع العمل، فهو إضافة للساحة الأدبية ورقما جديدا إلى خانة الكتاب الروائيين الجزائريين⁴.

تقع الرواية في مادتين صفحة من الحجم الصغير، مقسمة إلى ثمانية عشر فصلا، يعرض كل فصل جانبا من المضمون"، حيث إستطاع الكاتب توفير رابط بين هذه الفصول جميعا فجاء الفصل السابق فيها يقود الفصل اللاحق"⁵.

أما غلاف الرواية جمع بين اللونين الأسود والأبيض، أما الأرضية فيضاء خالية من أي رسوم عدا خطين متوازيين، وعنوان كتب بالأسود وبالخط العريض، وكلا اللونين هما مبعث الحزن الألم

والإستياء والرفض، فاللون الأسود يضع حاجزا بينك وبين الآخرين"⁶، أما الأبيض فهو لون مزدوج الدلالة الفرح الحزن وقد يبعث في النفس القلق، فكثيرا ما يذكرنا بلون الكفن مبعث الحزن، وهو لباس الحداد في الأندلس⁷، وهذا ما عبرت عنه رواية بعنوانها "المرفوضون" جمعت بين اللونين لتخلق دلالة معينة هي الإنتهاك بأنواعه الأخلاقي، السياسي، الفكري، والمكاني....

ب- مخلص الرواية:

أحداث الرواية تجري على أرض أوروبية وبالضبط في فرنسا، تحكي الرواية قصة المهاجر الجزائري وما يعانيه من مشاكل ومتاعب وظلم وإنتهاك ورفض في كل مكان سواء العمل، المسكن، المقهى، المتجر، الحديقة العامة، وهو موضوع جدير بالإهتمام لإرتباطه بالواقع الجزائري المعاصر من جهة، ومن جهة أخرى لتوفر عنصر الصراع الطبقي والحضاري، وهنا طرحت الرواية معاناة جزء من الشعب الجزائري فرضت الظروف عليه الهجرة والعيش خارج الوطن⁸، يتقاسم الرواية مجموعة من الشخصيات الفرنسية والجزائرية، في مقدمتها " أحمد" الشخصية المحورية وماري لينا وجان وعيس بربوش وغيرهم.

أحمد الذي هاجر إلى فرنسا مع بداية ثورة أول نوفمبر 1954 وعمره آنذاك خمسة عشر عاما ، ثم عاد إلى جزائر بعد الإستقلال ليتزوج ، ليعود إلى فرنسا تاركا زوجته وراءه، باحثا عن لقمة العيش

له ولعائلته ، يفقد ابنه الوحيد البالغ من العمر سنتين، ثم زوجته، تشتد معاناته الداخلية في الغربة وتتفاقم عليه المشاكل الخارجية، فيجد ف الخمر وترك العمل وعدم الإهتمام بالنفس مخرجاً له بخاصة بعد إحساسه إنسان غير مرغوب فيه" كان يتسبب في إنتشار القمل والبراغيث .. صار سكيراً مدمناً"⁹ لتكون نهايته الموت، حيث يلتقي عند خروجه من الحانة كالعادة قل منتصف الليل بقليل بفتاة هاربة من الشرطة يساعدها على الهروب وتوصلها إلى حيث أرادت، وبعد عودته يلتقي الشرطة التي لمحتة وهو يهرب الفتاة فيشبعونه ضرباً وركلاً ، ليعود بعد ذلك إلى بيته وتكون هناك نهايته دون أن يعلم به أحد إلا بعد مرور مدة زمنية.

فالرواية "تصور بذلك المصير الرهيب الذي يترصد كل عامل جزائري، ذلك المصير الذي يصل إلى إزهاق الأرواح بكل بساطة دون أن يعتبر ذلك من الجرائم ودون أن يثير ضجة تذكر، وكثيراً ما يلف السكوت والصمت تلك الجرائم ضد العمال في فرنسا من طرف جهات تحقد على كل ما هو جزائري، ذلك السكوت غالباً ما يكون بتواطؤ سافر من الشرطة نفسها ويبقى المجرم بدون عقاب"¹⁰.

وللكشف عن الرفض الفرنسي للجزائري ونوعه وحتى سببه سننظر في علاقة الشخص ببيئتهم البعض من خلال رصد سلوك الشخصيات في الرواية، وكيف تصور الكاتب الآخر وتعامله مع الجزائري ، خاصة وإن الرواية تزخر بتواجد العنصر الأجنبي حتى

تكاد تكون كل الشخصيات أجنبية، إذ خاف الكاتب الروائيين الجزائريين، أنه أبقى على شخصياته في بيئتها الحضارية وصور علاقتها وتفاعلها مع الجزائري¹¹، ومن أبرز الشخصيات الأجنبية التي تطلعتنا عليها رواية المرفوضون شخصية ماري وجان لإستقطابهما على أحداث الرواية .

1- شخصية ماري:

ماري في الرواية جارة أحمد الجزائري وخطيبة برنار الذي قتل في حرب الجزائر 1954، مازالت متعلقة بخطيبها المقتول، تعيش وحدها مع كلبها الذي أسرف الكاتب في حديثه عنه، حيث تعرض لأصله ومرضه ووفاته ومكانته عند ماري وغير ذلك، مازالت ماري متعلقة بخطيبها وتحمل أحمد مسؤولية مقتله مادام جزائريا، فقد أصبحت ترى في كل ما هو جزائر بصورة لقاتل خطيبها، حتى وإن كان لا يحمل من الجزئر سوى الاسم .

تدخل الشخصية أحداث الرواية إبتداء من الفصل الثالث يقدمها الروائي " بقوله" أترعت ماري من جديد قدحها بالخمير، وسألت صديقتها ليلى ألا تريدين حقا"¹²، فخوفها من أحمد وعدم ثقتها فيه دفعها لمعاقرة الخمر كوسيلة للهروب من عقدها النفسية، فقد صورها الروائي أنها تعيش صراعا داخليا ومعقدة تحقد على كل ما هو عربي"، رفعت قدح الخمر وأفرغت جزءا في جوفها تقول بصوت ثل : كل هذا بسبب العرب..... سيهلكون بدوننا جوعا، لأنه لا يوجد عندهم

قمح" ¹³، والعرب عندها لا يفكرون سوى في الجنس، وهو أدنى مرتبة منهم فمعيار الجودة عندها قائم على جنس والحضارة" هل تعرفين أن هؤلاء لا يفكرون سوى في الجنس.... أليس هذا أمرا مروعا" ¹⁴، إذ وصل بها الكره إلى درجة العنصرية والتعصب تقول لجان" إن مدير المأوى منصب لا بأس به، وإن كان الذي كنت تشرف عليه هو مأوى للعرب" ¹⁵.

وهكذا ماري ترفض أن يجاورها أحمد في المسكن، فهي تخافه لأنه عربي، وبخاصة جزائري كانت تردد على مسامعه قولتها: " فأنا خاف منك..... أخاف أن تقتحم بيتي ذات يوم أنا لا أثق فيك" ¹⁶، فالنص قدم ماري شخصية عدائية في نفس الوقت تمقت كل ما له صلة بالعرب، تصب أحقادها عليهم ويظهر جليا عندما سقطت ماري على الدرج، وصادف ذلك صعود أحمد الجزائري الذي حاول مساعدتها للوقوف لكنها صاحت في وجهه " إنزع يدك القدرة هذه عني..... سأشتكي للبوليس سيطر دونك من هنا كالكلب.... سيقتلك جان" ¹⁷.

فالشخصية حقدها وخوفها وعقدها النفسية وشكها في كل من حولها جعل الناس يهجرونها، وعليه الروائي حصرها في بيتها، ولم يدخل عليها أحد سوى لينا التي إمتنعت في النهاية على زيارتها، حتى جيرانها تخلو عنها، حيث كانت تدق الأبواب وتصرخ. أما سبب هذه الصورة العدوانية، والعقد النفسية يرجعها الكاتب إلى موت زوجها

في حرب التحرير، هذا الأمر دفعها إلى ترديد جملتها لأحمد" لقد حطمت حياتي..... أنت وأمثالك لقد قتلت زوجي"¹⁸، فهي تتهمه بقتل زوجها وإرتكابه للجريمة، فقط لأنه جزائري، وتصر الشخصية على المدافعة على حقها وتقر بمشروعيتها، هذا الحقد فاق كل الوصف "إنهم متوحشون، حاولت دفعهم إلى مستوى الحضارة... لكن لا يمكن أن تحول الوحش إلى إنسان"¹⁹. وعليه فقد مارست الشخصية كل أشكال النبذ والحقد والعدوان ضد أحمد الذي يمثل في نظرها كل الجزائريين صبت عليه مشاعر الكراهية والإزدراء .

2-شخصية جان:

هو صديق برنار وقد شارك في حرب الهند الصينية معه وحرب الجزائر ، وبعد أن جرح عين مديراً للمأوى خاص بالعمال العرب والأفارقة، سرعان ما ترك العمل لرفض العمال المهاجرين إدارته للمأوى الذي يسكنون فيه، بسبب شعورهم بكرهه لهم عامة وللجنس العربي بخاصة، لتكون نهايته في الأخير على أيدي الثوار الأفارقة، حينما جاءهم مع مجموعة من المرتزقة انضم إليهم قصد غزو بلد إفريقي " سألتحق بفرقة مرتزقة.... وسأحصل على رتبة عالية وعلى أجر كبير جداً..... سأصبح غنياً...."²⁰، بعد مدة تقرأ ماري نبأ موته مع هؤلاء المرتزقة، فتحزن لهذا الخبر، إذا كانت تجمععه صداقة مع زوجها وكان يكثّر زيارته لها مناقشا معها بعض القضايا وإعادة ذكريات الماضي.

ولم تختلف صورة الشخصية عن شخصية ماري فقد قدم النص جان شخصية تحتقر الغرباء، تنظر إليهم نظرة إزدراء وإستخفاف، ويتجلى في قوله

متحدثا عن الجزائريين المغتربين في فرنسا"، يردون أن نغير لهم الأغطية مرتين كل شهر وألا ينام أكثر من واحد في حجرة واحدة لأنهم يدفعون أجورا مرتفعة كما يقولون... هؤلاء البلهاء نسوا بأنهم كانوا ينامون في الشوارع حينما كانوا في بلادهم، وبأنهم يكرهون الماء كالسرطان، والآن يردون أن يعطوا لنا دروسا في النظافة"²¹، فالشخصية تظهر حقدًا وعنصريتها ليس على العرب فقط بل على كل ما هو إفريقي، فقد وضع ممدو السنغالي وأحمد الجزائري في مرتبة واحدة ويعاملها معاملة الإحتقار.

هذا الحقد والرفض والسلبية للجنس العربي والإفريقي أوصلوا جان إلى التخلي عن منصبه الذي كان يشغله، وهو منصب مدير مأوى لا شيء فقط للإضراب الذي قام به سكانه مطالبين بتغير الأغطية مرتين في الشهر وتحسين ظروف العمل، وذلك حتى لا يضطر لتلبية مطالبهم، لقد تعلموا كيف يتحدثون عن الحقوق وعن... لقد كانت المسألة بالنسبة لي مسألة مبدأ، فماذا يبقى لنا إذا كانوا يفرضون علينا قانونهم هنا؟ هذا لا يمكن أن يحدث معي أبدا لقد كان إقتراحي هو استدعاء البوليس وتنقية المكان من وجودهم لكن المعنيين فضلوا التزول إلى الخضم.... فقدمت إستقالتي"²².

كما قدم النص الروائي هذه الشخصية ضعيفة جبانة المواقف الخطرة لا تقوى على المواجهة إلا من خلال حملها للسلاح" فهو لا يقوى على مواجهة عربي، إلا إذا كان متيقنا بأن الغلبة ستكون إلى جانبه"، فهو لا يتعامل مع العرب وبخاصة الجزائريين إلا من خلال الرشاشة التي تحميه أو من خلال حماية السلطة عندما غدى مديرا لمأوى

العرب " الآن يجد نفسه في موقف جديد أعزل عن أي سلاح لم يسعه سوى أن يضطرم بحقد عاجز"²³، هكذا هي شخصية جان هشة وضعيفة.

ولتصوير الشخصيات الرواية إعتمد الكاتب على الوصف الذي يعتبر من أهم التقنيات في الكتابة القصصية الحديثة ومستوى من مستويات التعبير عن تجربة معقدة يتداخل مع بقية المستويات السردية من حوار ومنولوج والسرد التي تتداخل البناء افني لأي عمل روائي، إذ هو وسيلة ناجمة لتحديد إطار الأحداث والشخصيات، وإبراز ملامح الإنسان²⁴، وهذا ما نجده عند إبراهيم سعدي الذي رسم لوحات لسلوك الناس في روايته عن طريق وصف الحالات النفسية للشخصيات " فأنا أحببت برنار إلى حد الجنون وموته خرب حياتي كلها "²⁵ فقد لجأ الكاتب إلى الإستقصاء في الوصف، وذلك يتبع الأثر والوصف الدقيق للأشياء والأشخاص"، وذلك لرسم الشخصية أو تحديد الفكرة أو إبراز وجهة نظر أو نقش لأنطباع في نفس القارئ يتمثل في معاناة المغتربين.... "²⁶، إذ ذكر الكاتب على وصف الجوانب النفسية، وأهم الجوانب الشكلية فالشخصية الفرنسية عنده تعيش مخاوف وصراعات وتشوهات نفسية فرضت عليها إعتبار الغريب وبخاصة الجزائري يحمل لها السوء وينوي لها الشر، لذلك فالفرد الفرنسي يتخذ الإجراءات بغية حماية نفسه من الهاجس الذي يصنعه في نظره الغريب وحده"²⁷.

وقد ربط الكاتب هذه المخاوف والعنصرية والعقد النفسية بالحروب التي خاضتها فرنسا ضد الشعوب في الهند الصينية وإفريقيا وما خلفته من آثار سلبية على المجتمع جعلت من الإنسان الفرنسي مستودع سلبيات²⁸.

بناء على ما ذكر نجد أن الشخصية الفرنسية في الرواية المغاربة وبخاصة الجزائرية منها أخذت حصة الأسد" إذ أسندت لها دورا بارزا في تعقيد الأحداث وتطورها وفي نمو الشخصيات"²⁹ مع إختلاف التمثيلات لها عند توظيفها في الأعمال سواء كانت امرأة أو رجل، فالمرأة صورت مرة قمة في الأخلاق والنبيل ومرة قمة في الكره والعنصرية أما الرجل أخذ صورة الخبث والشدوذ.

الهوامش:

¹ مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية، بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، ط1، ص 65.

² م، ن، ص 72.

³ مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، نصيرة زوزو، الشخصيات الثورية في رواية اللالز للطاهر وطار، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر ع7، 2001، ص 68/67.

⁴ ينظر مجلة الثقافة، قراءة أولى لرواية المرفوضون، عمار زعموش، ع71، ديسمبر، أكتوبر، 1982، ص 93.

⁵ م، ن، ص 94.

⁶ أحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1993، ص 419.

⁷ اليامين بن تومي سميرة بن حبيلس: التفاعل البروكسمي في السرد العربي، قراءة في دوائر التقرب، إين نديم للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، دار الروافد الثقافية، بيروت، لبنان، ط 2012، ص 70.

⁸ ينظر مجلة الثقافة، ص 94-95.

⁹ رواية المرفوضون، سعدي إبراهيم الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر — 1981، ص 9.

-
- ¹⁰ الرواية ، صفحة الغلاف .
- ¹¹ ينظر بشير بويجرة: بنية الشخصية في الرواية الجزائرية، منشورات دار الأديب، وهران، الجزائر، ط2، 2006، ص 195.
- ¹² الرواية ، ص 34.
- ¹³ الرواية ، ص 36.
- ¹⁴ الرواية ، ص 94.
- ¹⁵ الرواية 75.
- ¹⁶ الرواية ، ص 158.
- ¹⁷ الرواية 100.
- ¹⁸ الرواية، ص 155.
- ¹⁹ الرواية ، ص 156.
- ²⁰ الرواية، ص 86.
- ²¹ الرواية، ص 75.
- ²² الرواية ، ص 76.
- ²³ الرواية ، ص 105.
- ²⁴ الرواية ، ص ، ن.
- ²⁵ ينظر م، س ، ن 80.
- ²⁶ الرواية ، ص 52.
- ²⁷ ينظر اليامين بن تومي، سميرة بن حيلس، م، س ، ص 79.
- ²⁸ ينظر بشير بويجرة / م، س ، ص 199.
- ²⁹ م، ن، ص، ن .

